المحاضرة الثامنة: المدارس والمكتبات.

عرفت الحواضر الجزائرية الكبرى انتشاراً للمدارس منذ القرن الـ 8 الهجري الـ 14 الميلادي مثل مدن تلمسان وبجاية ومازونة. وقد عرّف العلامة الجزائري أبو رأس الناصري المدرسة بذلك المكان الذي يلقن فيه مختلف العلوم بين العلوم النقلية والعلوم العقلية.

ولم تتوفر الجزائر على جامعات أو مدارس عليا مثل الازهر أو الزيتونة أو الجامع الاموي بدمشق. وتذكر المصادر التاريخية أن مدينة الجزائر كانت تتوفر على ثلاث مدارس كبرى للمذهب المالكي واخرى للمذهب الحنفي والى جانب عدد آخر من المدارس الصغيرة. كما عرفت مدينة معسكر بناء عدة مدارس من بينها المدرسة المحمدية التي شيدها الباي محمد الكبير باي الغرب الجزائري، والتي كان لها صدى كبير في الجزائر والمغرب الاسلامي واصبحت من العاهد العلمية التي تهاجر لها من حدب وصوب.

ويصف أحمد بن سحنون الراشدي وهو المؤرخ وأحد أعيان المنطقة وكاتب سر الباي محمد الكبير قائلا (... فجاء– أي الباي محمد الكبير– كما تراه العين من المباني الرّائقة، والآثار الفائقة، مكتنفاً بالمدرسة التي كاد العلم أن ينفجر من جوانبها، وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها للأجلها خرج بعض زواياه ....).

والى القرب منها كانت بمدينة تلمسان وهي مركز علميً ببايلك الغرب الجزائري بماضيها العلمي وعناية سكانها بتشييد المدارس والإنفاق عليها 50 مدرسة للتعليم الابتدائي والثانوي والعالي، يتعلم بها عدد كبير من التلاميذ وطلاب العلم من مختلف جهات بلاد الجزائر.

كما قام صالح باي بن ابراهيم حاكم إقليم قسنطينة (1772–1792) ببناء المدرسة الكتانية التي تميزت بالانضباط حتى انها قورنت بالمدارس الاوربية المعاصرة لها. وصنفت المدارس الى صنفين مدارس تهتم بتدريس العلوم الفقهية في تحفيظ القرآن الكريم وتفسيره

وشرح الاحاديث النبوية الشريفة وتعليم الفقه وعلوم المنطق والاصول واخرى تهتم بتدرس العلوم العقلية والتجريبية مثل علوم الفلك والحساب والطب. وقد كان عدد المدارس التعليمية بمدينة قسنطينة عند بداية الاحتلال الفرنسي ما يقارب التسعين مدرسة موزعة على مراحل التعليم عموما.

ونختتم الكلام عن المدارس بما قاله المؤرخ الجزائري أبو القاسم سعد الله في كتابه تاريخ الجزائر الثقافي في الجزء الاول (... ومهما كان الأمر فقد كثرت في الجزائر المدارس الابتدائية حنى كان لا يخلو منها حي من الأحياء في المدن ولا قرية من القرى في الريف، بل أنها كانت منتشرة حتى بين أهل البادية والجبال النائية. وهذا ما جعل جميع الذين زاروا الجزائر خلال العهد العثماني ينبهرون من كثرة المدارس بها وانتشار التعليم وندرة الأمية بين السكان.... وكانت الاوقاف والصدقات تلعب دوراً هاماً في انتشار المدارس ونشر التعليم.)

2- المكتبات:

تعتبر المكتبات من المراكز الثقافية الهامة التي اهتمت بها السلطة وفئات المجتمع خلال العهد العثماني، لما لها من أهمية في تكوين الفرد المسلم بالعلوم المختلفة النقلية والعقلية. وكان دورها التعليمي بارزاً اذ ساهمت في نقل المعارف العلمية والدينية لأبرز علماء الامة الاسلامية مشرفاً ومغرباً، وحافظت على هوية الامة الاسلامية وترابطها ونقل المعرفة من جيل لآخر.

والمكتبة هي عبارة عن مؤسسة علمية ثقافية تربوية تهدف الى جمع مختلف الكتب والمخطوطات عن طريق شرائها أو عن طريق عملية التبادل أو الاهداء أو ايداع مختلف نسخ الكتب من طرف الباحثين والعلماء، وتقديمها الى مستعملي المكتبة وروادها من طلبة وعلماء وباحثين.

كانت الجزائر خلال العهد العثماني من البلاد الاسلامية الغنية بمعارف الكتب المختلفة وقد ساهم موقعها الجغرافي في قلب المغرب الاسلامي في توافد جماعات وأفراد من علماء المغرب والاندلس عبرها، اذ كانت هذه الجماعات تحمل معها مجموعة من الكتب لمبادلتها مع كتب الحواضر الجزائرية وهوما وقف عليه التمقروتي عندما زار مدينة الجزائر وهو قادماً من مدينة استانبول وعائداً الى بلاده قائلا(... وطلبة العلم بها لابأس بهم...والكتب فيها أوجد فيها من غيرها من بلاد افريقية، وتوجد بها كتب الاندلس كثيراً...).

كما يروي سالم عبد الله بن محمد العياش(1663-1661) في رحلته المسماة لقط الفرائد من ماء الموائد أي مختصر الرحلة العياشية،(...كان رحيلنا من هذه البلاد يوم الثلاثاء صبيحة الثاني عشر من جمادي الاولى قاصدين واركلا ....ولم نزل نسير ...الى أن نزلنا عاشر يوم على قرية يقال لها والاّ ....وجدنا في روضته – احد صلحاء القرية- سفراً من نوازل البرزلي بخط الامام ابن مرزوق ومعه اجازات لبعض السادات القادرية بخط مشرقي، وكثر تعجبنا من وصول ذلك الى هذه القرية، وما كانا نظن إلا من كتب سيدي محمد بن إسماعيل ...ولما مات خلّف كتباً كثيرة وأوصى بها لخادم الروضة النبوية،...بلغت ألف وخمسمائة تأليف).

ومن أشهر المكتبات الجزائرية منها العائلية والمسجدية والتابعة لبعض الزوايا والطرق الصوفية مثل مكتبة الفكون بقسنطينة، والتي كانت تحتوي على أكثر من ألفين وخمسمائة مجلد مخطوط، تتوزع على علوم الحديث والفقه وعلوم القرآن وغيرها، ومكتبة أبي رأس الناصري بمدينة معسكر، ومكتبة الورثلاني، كما كانت المساجد بداخلها لا تخلوا من المكتبات التي تحتوي على امهات المخطوطات العلمية.

وعلى العموم، فإن الجزائر كانت تحتوي على عدة مؤسسات علمية وثقافية، ساهمت في الاهتمام بميدان العلوم المختلفة وتدعيم التعليم والحياة العلمية بشكل واضح حسب عصر تلك المرحلة التاريخية من عمر الجزائر الحديثة.